كلمة الدكتور محمود السيد(*)

باسم أصدقاء الفقيد

بسم الله الرحمن الرحيم

السيّد وزير الثقافة راعي هذا الحفل التأبيني السيّد الدكتور رياض نعسان آغا المحترم.

آل العلامة الأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي رحمه الله.

أيها الحفل الكريم:أسعد الله أوقاتكم.

حيٌّ بذكراك لا موتٌ ولا عدمُ يا من تخلدك الأخلاقُ والكتبُ

أجل أيتها الأخوات الفضليات والإخوة الأفاضل، إنَّ من تُخلّده سيرته العطرة ومناقبه الرفيعة وآثاره القيّمة ومواهبه المتعددة أدبًا وعلمًا، يبقى حيًّا في نفوس الأجيال، وصدق من قال:

موتُ النقيِّ حياةٌ لا نفادَ لها **قد مات قومٌ** وهم في الناس أحياءُ

ولكم نجد في سيرة فقيدنا الغالي العلامة الدكتور **عبد الكريم** اليافي دراسةً

(*) نائب رئيس مجمع اللغة العربية.

وتأليفًا وممارسةً في الوسط الأكاديمي الجامعي والمجمعي من دروس وعبر تتخذ منها الأجيال مثالاً يحتذى في الجدية، وقوة الإرادة، والحرص على التفوق والتميز، والمواطنة الحقيقية، والانتماء القومي، والنزعة الإنسانية، والإيمان برسالة أمته الحضارية، وتفاؤله بمستقبلها المشرق.

لقد عرفتُ الصديق الكبير الدكتور اليافي - رحمه الله - ، فعرفت فيه الوفاء والود الصافي والمحبة النقية والصراحة قولاً وفعلاً في الوقت الذي نجد فيه نفرًا تأبى بسلوكاتهم عن هذه السمات النبيلة والقيم الرفيعة، فإذا هم يأتون هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه!

وفي أجواء كهذه كم نفتقدك يا أبا محمد، ونفتقد صدقك ومودتك وظاهرك وباطنك وصفاء سريرتك وطهر مسعاك وشموخ رؤاك!

لقد كان الوفاء جبلة لفقيدنا الغالي في حياته كلها، ولا غرو في ذلك، فتلك هي سجيته، وهو القائل:

إن الوفـاء سـجية لا يزدهـي ... بجمالهـا إلا كـريم العنـصر

وهو الداعي إلى معاشرة أهل الوفاء:

مـن أراد الـدّنيا صـفا ووفـاء ... فليعاشـر أهـل الوفـا والتـصافي

لقد جسّد وفاءه سلوكًا وممارسةً مع أسرته الصغيرة، قرينته الفاضلة وأبنائه البررة، وجسّد وفاءه لمدينته التي نشأ فيها وترعرع، ولوطنه وأمته وللإنسانية كلها.

جسّد وفاءه لقرينته الفاضلة سموًّا في قوله:

إذا فتيـاتُ الحـيِّ أغـويْنَ صـاحبي ... وأصـبح منقـادًا لهـا أيَّ منقـاد

فأشـهى غـواني الحـيِّ عنـديَ زوجـتي ... وأحلـى نـساء الأرض أمٌّ لأولادي

وجسّده عاطفةً متأججةً في ندائه لابنه الحبيب محمد:

محمـــدٌ يـــا حبيبـــي أنـــت الحبيـــبُ الوحيـــدُ
القلـــب بيتـــك فيـــه مـــا تـــشتهي ومزيـــد

وفي تبيانه لمحاسن ابنته الرفيعة التهذيب شادن:

محاسنُ شـادن تـسبي القلوبـا أكـــادُ مـــن المحبـــة أن أذوبـــا
ذكـاءٌ خـارقٌ، وصـفاءُ طبعٍ وقلـبٌ طـافحٌ عطفًـا وطيبـا

وفي محبته لمدينة حمص التي وُلد فيها، وكانت طفولته ونشأته الأولى في ربوعها:

يـا حمـصُ جسمي مـن ترابـك فـاعلمي أني علـى الحـبِّ القـديم مقـيمُ
روحـي كـذلك مـن سمائـك نفحـةٌ حلّت بهذا الجسم وهـو سَقيمُ
إني أديـــن بلهجـــتي وبمهجـــتي وسـذاجتي لـك والعطـاءُ عظيمُ
أمُّ الحجـار الـسّود سـرُّك أبـيضٌ وكـذاك قلـبي أبـيضٌ وسـليمُ

وما أسمى وفاءك ياأبا محمد لعروبتك وانتمائك العربي، وأنت القائل:

ومحبـتي هـي للعروبـة كلهـا والعلـمُ والإسـلام كـل شـعائري

كما يقول:

أنـــا ســـوريٌّ ولكـــن فـــؤادي عـــربيُّ
وهـــوى قلـــبي تـــراثٌ كالـــدراري يعـــربيُّ
لم أجـدْ مثـل بـلادي إنهـا المـأوى الزكـيُّ
أينمـــا كنـــت فـــإني عـــربيٌّ عـــربيُّ

أما محبتك للغتك العربية وعشقك لها فقد ملأ عليك جوارحك وعالمك في حلّك وترحالك، وعلى الرغم من معرفة أبي محمد عدّة لغات أجنبية «الفرنسية والإنكليزية والإيطالية والألمانية والروسية» كانت اللغة العربية هي حبيبته التي ملكت عليه فؤاده:

كم من لغات قد عرفت وإنما لغة العروبة فوق كل لسان

ملكت عليّ جوانحي فأطعتها حبًّا فعادت وهي طوع بناني

وبناديها قائلاً:

أيا لغة القرآن أنت حياتنا ومرآتنا فيما نقول ونفعل

ويبيّن أن نسبة الضاد عنده أشرف النسب:

إذا تقاربت الأقطار أو بعدت فنسبة الضاد عندي أشرف النسب

لم يبق شيء بأيدينا سوى لغة نصونها بسوادِ القلب والهُدُبِ

ويعدد مآثر لغته قائلاً:

هي نسغ وحدتنا ونور حياتنا وسماؤنا والأرض و الأركان

ولم يعبّر عن محبته للغته شعرًا فقط، وإنما عبّر عنها نثرًا فيقول: «وكما يحلو شعاع الشمس حين يتلألأ في الضحى والأصيل على لازورد السماء الصافي، كذلك يتلألأ اللفظ العربي الشريف في خاطري وفي سمعي وبصري، فأنعم بطلاوته، وأقتات من حلاوته، وأرشف من معين مروائه، وأحلم في آفاق جرسه».

وكان رحمه الله معجبًا بما كتبه اللغوي أحمد فارس الشدياق عن مكانة

اللغة العربية، إذ يقول الشدياق: «ومامثل العربية إلا مثل دوحة ذات أفنان، في كل فنن منها أفنان، مايزال ظلها ظليلاً ضافيا، ومورِدها عذبا صافيا، بيد أن العرب والحق أقول لم يقدروها حق قدرها، ولا عرفوا أنها الفاضلة وغيرها المفضول».

ويرى اليافي رحمه الله أن في خدمة اللغة العربية خدمةً للقومية العربية وخدمة في الوقت نفسه للحضارة الإنسانية، وكل تهاونٍ في شأنها معناه التفريطُ في حق أعلى روابط الوطن العربي، والتقاعس في جنب أغلى كنوز التراث الإنساني، لذلك كله كان لزاماً أن نحرص عليها حرصنا على كياننا، وأن نستمسك بها استمساكنا بحقيقتنا، وكل جهد يصرف في هذا الشأن لن يضيع عبثًا في الميدان القومي ولا في الميدان الإنساني.

ولقد سألته مرة: هل سألتك شادن عن المبتدأ والخبر، فنظر إليّ باسمًا ومستغربًا هذا السؤال، فقلت له: قرأت منذ يومين قول الشاعر:

وشادن تسألني ما المبتدأ والخبر؟ مثلهما لي مسرعًا فقلتُ أنت قمر

فضحك قائلاً: إن ابنتي شادن متمكنة من لغتها العربية، وضحكنا معًا وقلت له: كيف لا تكون متمكنة وهي ابنة أبيها العلاّمة اليافي.

ولكم كان أبو محمد معتزًا بتراث أمته، وهو القائل:

منه إشراقنا، ولولا الجذور الخضرُ ما هزت الصبا أغصانا

إلا أنه كان منفتحًا على تراث الشعوب الأخرى في الوقت نفسه:

أهوى تراث الشعوب طُرًّا كم فيه من قيمة سنيّة
فكلّ شعبٍ له مزايا أفاد من نورها البرية

ويرى أن:

أحلى علاقات الشعوب صداقةٌ تُبنى على الحبِّ الوثيق المسكر

ولكم كان ظمآن إلى أن يسود الوفا ونبله بين الأفراد والشعوب:

إني ظمئتُ إلى الوفاءِ ونبله وإلى إخاءٍ دائمٍ ميمون

وإلى علاقات الشعوب رضيةً وإلى سلام عاطرٍ وأمين

أيتها الأخوات، أيها الإخوة، أيها الحفل الكريم:

تلك هي الصورة عن بعض سمات شخصية الصديق الغالي الدكتور اليافي، قد أعجبتُ أيما إعجاب بهذه الشخصية الفذة: أُعجبت بتفوقه وثقافته الموسوعية ومناقبه الرفيعة وإنسانيته ورهافة حسه، أُعجبت بذكائه الحاد وذاكرته المتميزة، وإخلاصه في عمله وتفانيه في أدائه، كما أعجبت برصانة رأيه ورزانته، وبتبتله على محراب الدراسة الجادة في جامعة السوربون بباريس:

ليلايَ كانت كلُّ درس ممتع بمدارجٍ أو قاعةٍ أو مخبر

أمضي إلى «السوربون» في غدواتها وأعاود الجلسات طيَّ الأعصر

ولقد توطدت صداقتي به في العقود الثلاثة الأخيرة، إذ إننا عملنا معًا في المجلس العلمي للاتحاد العربي للهيئات العاملة في رعاية الصم وفي مؤتمرات الاتحاد وندواته، وفي اجتماعات المركز العربي لبحوث التعليم العالي، واشتركنا معًا في مناقشات رسائل علمية في كلية الآداب بجامعة دمشق، ثم عملنا معًا في المجلس العلمي للآثار في وزارة الثقافة يوم أن كنتُ وزيرًا لها.

ثم تعززت هذه الصداقة في رحاب مجمع اللغة العربية، حيث كان لي شرف

الجلوس إلى جواره في اجتماعات مجلس المجمع، وطالما استأنست بآرائه الرزينة، وطالما وجدت المتعة والفائدة في تعقيباته على بعض الآراء التي كانت تطرح، وبعض هذه التعقيبات كان جهرًا، وبعضها الآخر كان همسًا في الأذن!

ما اتصلت به في يوم من الأيام مستفسرًا عن موضوع أو كلمة، إلا كانت إجابته مباشرة، ولا عجب في ذلك فمخزونه الثقافي يتسم بالغنى والتنوع، يزين ذلك كله ذاكرة متقدة وسرعة بديهة، وتواضع قلّ نظيره.

والحقّ أقول، كان اليافي رحمه الله آخر العمالقة الموسوعيين في زماننا الحالي، وما رأيت صفة الموسوعية تنطبق على عالم في أيامنا هذه كما تنطبق على الأستاذ الدكتور اليافي، ذلك لأن ثقافته هي ثقافة موسوعية بكل جدارة، فهو في دراسته الجامعية الأولى حاز شهادة الإجازة في العلوم «رف ك» وكان الأول في نيلها سنة ١٩٤٠، كما نال شهادة الإجازة في الآداب في السنة التي تليها. وفي دراساته العليا حاز خمس شهادات في تخصصات مختلفة «علم النفس العام، فلسفة الجمال وعلم الفن، المنطق والفلسفة العامة، تاريخ العلوم وفلسفتها، علم الاجتماع والأخلاق».

ولا أدل على موسوعيته من تدريسه في سبع كليات جامعية هي « الآداب، العلوم، الصيدلة، الطب، التربية، التجارة، الشريعة» ومن تدريسه مقررات في ميادين المعرفة المختلفة «علم الاجتماع، علم الجمال، فلسفة العلوم، المنطق، تاريخ العلوم، أصول تدريس الفيزياء والكيمياء، علم النفس، الإحصاء الحيوي».

ولا أدل على موسوعيته من تآليفه الحسان في ميادين متنوعة «تمهيد في علم الاجتماع، في علم السكان، الفيزياء الحديثة والفلسفة، دراسات اجتماعية ونفسية، دراسات فنية في الأدب العربي، تقدم العلم، العلم والنزعة الإنسانية....إلخ».

وهكذا تدركون أيها السادة مدى الخسارة الكبيرة التي مُنينا بها بفقدان هذه الشخصية الموسوعية المتعددة **الجوانب معرفة وقيمًا وسلوكًا** وأداءً، هذه الشخصية المثال والقدوة.

أيها الحفل الكريم:

لابد لي من الإشارة إلى باقة من الحكم التي كنا نلقفها من أستاذنا اليافي رحمه الله ومنها:

وقيمة المرء ما يسديه من عملٍ ما المرءُ في هذه الدنيا سوى خبرِ
فلا تحتفل بالعيش عمرك والتمس سموَّ المزايا فهي أحرى وأقمنُ
والحسنُ أجملُ ما غنّى به بشرٌ يحيا به الدوحُ والأزهارُ والثمرُ

«إن الطبيعة تبدو صماء لاتسمع، وعمياء لا تبصر، وبكماء لا تنطق، ولكن الإنسان هو **سمعها الذي به تسمع، وبصرها** الذي به تبصر، ولسانها الذي به تنطق، إنه هو الذي يمنحها بالعلم والفن **سمعًا وعينين ولسانًا وشفتين**».

ولقد رويت له حكمة هندية أعجب بها، وطلب إليَّ كتابتها له، **والحكمة تقول:** «العقلاء هم الذين يرون الأحداث قبل وقوعها، والحمقى هم الذين لا يرون الأحداث إلا ساعة وقوعها، والمجانين هم الذين لا يرون الأحداث حتى **بعد وقوعها**».

كما سجلت له حكمة تضمنها كتاب «داغستان بلدي» **لرسول** حمزاتوف، وهذه الحكمة هي: «لا، لم يكن شجاعًا، **ولاحكيمًا**، لكن انحنى له **فقد كان إنسانًا**. افقد كل ماتملك، لكن لا تبع الإنسان فيك ولاتفقده».

ولقد عقب على هذه الحكم قائلًا: الحكمة هي أصفى رحيق يقطره عقل **الإنسان**.

وثمة عقول كبيرة بمنزلة المصابيح في تاريخ البشرية، وما أحوجنا إلى هذه العقول الكبيرة في عالمنا!

وكان يرى أن الحوار في قضايا العلم والفلسفة والفكر إنما هو من مزايا الحضارة الإنسانية الخيّرة النيّرة الفاضلة، ذلك أنّه في الحوار تثار أمور فكريّة، وتثار مشكلات علميّة، وتتسق المعارف، وتتقدّم تقدّمًا وطيدًا، وتتجلّى المواهب.

ولقد تحيّر ماجرى من حوار بين عالمين فيلسوفين من أشهر علماء الإنسانية ومفكريها الأعلام، ومن أكثرهم مناقب وأعمالاً تركت آثارًا بالغة في تاريخ العلم والفلسفة، ألا وهما أبو الريحان البيروني والشيخ الرئيس ابن سينا، وكيف طرح أبو الريحان سؤالات علمية وفكرية على الشيخ الرئيس وهما في مقتبل العمر وريعان الشباب، وما أجاب عنها ابن سينا.

وإن النضال في عصرنا الحاضر إنما هو نضالٌ في ميدان الفكر وسباقٌ في لمبة الثقافة ومباراةٌ في مضمار العلم، فالعلم نورُ المجتمعات وهاديها وقائد الأمم والشعوب في سبيل الحضارة الإنسانية ودليلها الأمين.

وما أنبلها من صرخة انطلقت من أعماق فقيدنا الغالي تجاه ما يجري في عالمنا المعاصر، وفي ظلال عولمة متوحشة يسحق فيها الإنسان إذ يقول:

تبًا لقومٍ يدّعون حضارةً ... ونفوسهم في اللؤم كالذؤبان
ليس الحضارةُ غلةٌ مسروقة ... من أذرع العمال والأجفان
إنّ الحضارةَ رفعةٌ ومكارمٌ ... وسموّ أخلاقٍ وصدقٌ بيانِ
ماضرّ لو جعلوا السلام علاقةً ... بين الشّعوب تدانُ كالأديان

تلك الصرخة المنبثقة من ضمير إنساني كبير فُطر على المحبّة والسلام في حياته كلّها وهو القائل: «على أني في حياتي فطرت على محبة الحياة ومحاسن الكون وجمال الطبيعة، وعلى الأنس بمن عرفت من النّاس ولاسيما أصدقائي والمقربين مني، وما أحلى السعادة التي تتفجر في قلب الإنسان حين يشعر أنه يعيش في جو ملؤه المحبة والحنان والتعاون والتفاؤل! وعلى الرغم من قتامة الأجواء، وضخامة التحديات التي تواجهها أمتنا فلقد كان صديقنا الكبير متفائلاً بعودة مجدها الغابر إذ يقول:

سنجهدُ وسع النفس في خدمة العلا ... إلى أن يعود العيش فنيانَ أروعا
عصورٌ تقضَّتْ كنَّا بالمجدِ حُفَّلاً ... وسوف يؤول المجد أبهى وأبدعا

رحم الله العلامة الكبير الدكتور اليافي الرحمة الواسعة، سعة ما قدّمه لأمته من أفانين العطاء الفكري، والتي كان قد منحه بسببها السيد الرئيس بشار الأسد وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة تقديرًا لعلمه وثقافته وإكبارًا لمناقبه وإخلاصه لوطنه وأمته.

وتعازينا القلبية الحارة لأسرته الأخت الفاضلة قرينته الكريمة السيدة أم محمد وابنه المحترم الدكتور محمد، وابنته الرفيعة التهذيب الدكتورة شادن، وإلى آل اليافي الكرام وتلامذته ومحبيه وأصدقائه وإلى الناس كافة لأنه كان الإنسان الإنسان.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.